هذا البناء مباركٌ أرّخ قصرٌ مرادُ الله قد شادهُ

ومن ذلك نظم لرياض افندي قاضي دمشق كان في تاريخ سنة ١٠٣٥ (١٦٢٥م) وكان اطرش واعرج منهُ بيت في التركية تعريبه:

ان عيّروني بأني اعرجٌ وبلا رجلٍ ففي كل فنٍّ لي يدٌ طولى

ولهُ غير ذلك مما لم نذكره حبًّا بالاختصار (لهُ بقيّة)

رسول الاتحاد بين الكنيستين

لحضرة الاب ا . دوغو اليسوعي

انَّ كنيسة المسيح واحدة فقط وتلك الاولى من سماتها التي يعترف بها كلّ من يتلو دستور الايمان فيقول « اعترف بكنيسة واحدة » الّا انَّ الاهواء البشريّة شوّهت نوعاً تلك الوحدة بانفصال قسم كبير من الشرق عن مركز الرئاسة فجرى الاصطلاح على المقابلة بين الكنيسة الامّ التي زمامها في يدي الحبر الروماني خليفة بطرس الهامة والكنائس المنفصلة المدعوّة بالكنيسة الشرقيّة وعلى الاخصّ بالكنيسة اليونانيّة . فنحن مراعاةً لهذا الاصلاح الرضيّ نتكلّم في هذه المقالة عن الكنيستين اي الرومانيّة واليونانيّة

وغنيّ عن القول انَّ اتحاد هاتين الكنيستين كان الشغل الشاغل لكلّ من يهمّهُ خير الوحدة ويأبى شرور الانقسام ويودّ تتمّة قول السيّد المسيح في صلاته قبل آلامه (١٧ و ٢٠ و ٢٢ و ٢٣) : « أيها الآب القدّوس احفظ باسمك الذين اعطيتهم لي ليكونوا واحدًا كما نحن واحد . . . ولستُ اسأل من اجل هؤلاء فقط بل من اجل الذين يؤمنون بي عن كلامهم ليكونوا باجمعهم واحدًا كما نحن واحد انا فيهم وانتَ فيَّ ليكونوا مكمّلين في الوحدة »

فمن يا تُرى من النصارى المحبّين للمسيح المفضّلين على الاغراض الشخصيّة مجد الهمم يستطيع ان يصمّ آذانهُ عن هذه الدعوة ولا يُهيج قلب ربّهِ فيحظيهِ باقصى اشواقهِ ان يرى الوحدة بين المتممين الى شخصهِ الكريم

والحقّ يقال انّهُ وجد في كلّ عصر بين الشرقيين والغربيين رجال افاضل ترفّعوا عن اوهامهم وأماطوا عن عيونهم قناع الدعاوي الباطلة فسعوا بجمع القلوب ولم يخافوا الخوض في غمر البحث بنزاهة واخلاص لازالة سوء المفهوميّة واثبات الحقائق المختلف في اعتقادها

لكنّ بين اولئك الاماثل الذين استعذبوا سكر النفوس التقيّة والعقول النيّرة المستقيمة لا نظنّ انّهُ وجد في الشرق رجلٌ اعظم واوسع فضلاً واسمى عقلاً واصدق قولاً وفعلاً من مطرويوليت مدينة نيقية وكردينال الكنيسة الرومانيّة بسّاريون الشرقيّ اليونانيّ الذي ضاء في سماء عصره كنجم متلألئ ألفتَ اليه انظار كلّ مشاهير زمانهِ فكان في وسطهم كنقطة دائرتهم وقطب افكارهم

والحقّ يقال انّ بسّاريون جمع في شخصهِ من المفاخر ما يكفي لتخليد كثيرين من الرجال فانّهُ كان كاتباً بليغاً وخطيباً مصقعاً واستقفاً هماماً وسياسيّاً محنّكاً واماماً في النهضة الادبيّة التي جرت على عهدهِ في اوربّة وكلّ هذه الصفات لمّا يُقتضى لتفصيلها كتب واسعة كما فعل ارباب التاريخ الذين درسوا حياة هذا الرجل العظيم فكتبوا عنهُ الفصول المستفيضة بل ترجموا حياتهُ بمصنّفات مستقلّة لا يطالعها الباحث الّا يقرّ بتقدّم المترجم على اهل عصرهِ . ولذلك ترى كلّ المرلعين بتاريخ القرن الخامس عشر يتهافتون على اخبار بسّاريون فيذكرون اعمالهُ ويطرنون مآثرهُ ويتفاوتون ادقّ اقوالهِ ويبيّنون ما كان لهُ من الفضل على رجال عصرهِ ومن التأثير في خدمة الدين ويعظّمون شهامتهُ بين العثرات العديدة التي عارضتهُ في مسيرهِ

وعليهِ لم نقصد في هذه المقالة ان نستوفي وصف اعمال بسّاريون وانّما عوّلنا على ذكر مآثرهِ في اثناء المخابرات التي دارت بين الكنيستين في عهد يوحنّا الثاني واخيهِ قسطنطين الثاني عشر آخري سلاطين الروم فاستحقّ ان يُدعى برسول الاتحاد بين الكنيستين

*

قال اوغست كونت الفيلسوف الوضعيّ : «فدعوِ حياةً شريفةً عظيمة اذا عقد صاحبها في شبابهِ النيّة على فكر سامٍ . ثمّ خصّ كهولتهُ بتحقيق ذاك الفكر»

لعمري انّ هذا القول هو خلاصة حياة بسّاريون الكهنوتيّة والاسقفيّة مدّة

الست السنوات التي دامت فيها المقاولات والاجتماعات بين رومية والقسطنطينيّة لتوطيد عرى الاتّحاد وذلك من السنة ١٤٣٣ الى آخر جلسات المجمع الفلورنتيني في ٦ تموز سنة ١٤٣٩ فانّهُ كان كنفس تلك المجتمعات واعظم ساعٍ في نجاحنا

*

كان مولد بسّاريون على الرأي الاصحّ في اوائل سنة ١٤٠٣ في مدينة طرابزون حاضرة الارمن من ابوين رقيقي الحال كانا يرتّقان بشغلهما فتصّرا ابنهما ودعواهُ يوحنّا واذ رأيا نجابة ولدهما جعلاهُ في خدمة اسقف البلد فتعلّم عندهُ مبادئ العلوم ثم أُرسل الى احدى مدن اليونان ليواصل فيها دروسهُ ولعلّهُ كان ناوياً ان يخدم الكنيسة بصفة كاهن عالميّ ولكنّهُ وجد في العيشة الرهبانيّة ما يقرّب اليهِ عبادة الله والتعمّق في العلوم فلبس الاسكيم الرهبانيّ ودعي بسّاريون ثمّ انقطع الى درس العلوم فبرع فيها ثمّ قدم القسطنطينيّة ودرس على اساتذتها فاشتهر بالبلاغة ولمّا توفي سنة ١٤٢٥ ملك الروم مانويل پاليولوغ انتدبهُ ارباب الدولة الى تأبين الملك وكفى بذلك دليلًا على ما كان اصاب لدى الخاصّ والعام من السمعة الطيّبة

ولمّا خلف يوحنّا الثاني اباهُ مانويل في الملك قرّب بسّاريون ووكل اليهِ بعض المهامّ فوجدهُ حكيماً نزيهاً متفانياً في خدمتهِ فجعلهُ رئيساً على احد الاديرة الكبيرة. وكان بسّاريون مع ترقّيهِ في المناصب ملازماً للسذاجة الرهبانيّة معتصماً بحبل التواضع الانجيليّ فكان المجد يتبعهُ وهو لا يطلب المجد وقد اقرّ بذلك كتبة الروم حتى الذين لم يوافقوهُ في آرائهِ كالمؤرخ سيروپولوس والكاتبين فرانتزس وپوپوف فانّهم كأنهم لسان واحد في وصفهِ كرجلٍ متجرّد عن حبّ الرئاسة والطمع في الشرف

وعاش بسّاريون مدّةً في جزر اليونان حيث كان الشعب ممتزجاً من عنصرين مختلفين العنصر اليونانيّ الوطنيّ والعنصر اللاتيني من بقايا ممالك الفرنج الصليبيين الذين استولوا مدّة على تلك الجهات فحصل من امتزاج العنصرين بعض التقرّب في العادات والتحبّب بين الشرق والغرب فزال التنافر. وكان الرئيس بسّاريون يتردّد على الجميع فكسب ثقتهم واعتنى بشؤونهم الروحيّة وتربية صغارهم. ومما يُعرب عن همّتهِ انّهُ درس في ذاك الوقت اللغة اللاتينيّة ثمّ اتقنها بعد ذلك في فلورنسة وصار يتكلّم بسهولة فساعدهُ الامر على مطالعة كتب الآباء اللاتينيين

وفي تلك الاثناء ايضاً صاحب بسّاريون قوماً من أدباء اليونان واخذ عنهم بعض العلوم كالرياضيّات والهيئة وراجع كتب قدماء اليونان كافلاطون وارسطو واحكم فلسفتهما وصنّف عدّة تآليف استحسنها علماء زمانه

فزادت شهرة بسّاريون في خاصة المملكة ورأى الملك يوحنّا ان يتّخذه كسفيره الى ملك طرابزون وطنه ليعقد معاهدة بين الدولتين لردّ غارات الترك. فقام بسّاريون بهذه المهمّة وفاز بمرغوبه وعُقدت المحالفة المقصودة واستحقّ شكر الملكين فاراد يوحنّا ان يثنيهُ على تلك الخدم المشكورة فعيّنهُ لكرسيّ نيقية المطربوليتيّ فتولّى تدبيرهُ وليس لهُ من العمر اكثر من ٣٢ سنة

لكنّ تلك الامتيازات لم تكن لتشغل فكر بسّاريون عن خدمة النفوس بل اوقدت قلبهُ غيرةً ازدادت على مقتضى المقام الرفيع الذي دُعي اليه

وكان الله قد اعدّ بسّاريون لمهمّة اعظم وصنيعة اعمّ نفعاً اراد ان يجزل خيرها على وطنه نعني بذلك توحيد كلمة نصارى الشرق والغرب لمناهضة الاتراك الذين كانوا يطمحون ببصرهم الى القسطنطينيّة لا يهدأ لهم خاطر حتى يطأوها بارجلهم ويجعلوا فيها مقرّ مملكتهم

لكنّ ملوك الروم قد عرفوا ما يتهدّد عاصمتهم فكانوا لا يألون جهدًا في استدراك هذا الخطر وتعزيز قواهم في وجه العدوّ. ولكن انّى يقوون على ذلك والاتراك يتقدّمون كلّ يوم الى الامام فصاروا يضايقون القسطنطينيّة برًّا وبحرًا وهم لا ينتظرون الّا فرصةً مناسبة لضرب المدينة. فكان قياصرة الروم حيثما يوجّهون الابصار لا يرون خلاصاً الّا بعقد عهدة مع الغربيين الّا انّ الغربيين لا يحرّكون ساكناً ما لم يندبهم الحبر الرومانيّ الى معاضدة اخوانهم الشرقيين. وهذا ما لا يُرجى عملهُ ما دام الشرقيّون مصرّين على خلافهم للكنيسة الرومانيّة شاقّين لها عصا الطاعة

فلذلك هذه العقدة لم يجد ملوك الروم سوى واسطة واحدة ان يعرضوا على الحبر الاعظم عقد مجمع مسكونيّ يتفاوض فيهِ اللاتينيّون والروم في معتقداتهم حتى اذا اتّفقوا في التعليم وتوحّدَ الايمان حصلت ايضاً وحدة القلوب فينهض الحبر الاعظم هم ملوك الغرب ليمدّوا الى اخوتهم الشرقيين يد المعونة بحشد الجيوش والدفاع عن الصليب

على انَّ كثيرين من اولئك الملوك كانوا يرون في هذا الاتفاق صعوبةً لعلمهم بانَّ فئة من رعاياهم بعد انفصال فوطيوس عن كنيسة رومية ولا سيما خلفه ميخائيل كيرولاريوس لم يرضوا بتقديم الطاعة لرئيس الكنيسة ونائب السيد المسيح على الارض. وكان نفورهم هذا قد زاد تفاقماً منذ اقتحم ملوك اللاتين على القسطنطينيَّة فملكوها نحو ستين سنة (١٢٠٤ — ١٢٦١) فلم تعد قلوب الروم تصفو لهم. وكان الاحبار الرومانيُّون لم يزالوا ينتقدون الوسع في ازالة ذات البين فعتدوا لتلك الغاية عدَّة مجامع لاسيما مجمع ليون سنة ١٢٧٤ فحضر نوَّاب الروم ذاك المجمع وصادقوا على دستور الايمان لكنَّهم كانوا يرون في تأخير ملوك الفرنج عن إمدادهم سبباً كافياً لنكث مواعيدهم كما انَّ الفرنج ما كانوا ليثقوا برجوع الروم الى الكنيسة الرومانيَّة. ولما في مانويل والد يوحنَّا الثاني ما يشهد على عدم استقامته فانَّهُ في الوصيَّة التي اوصى بها ابنهُ قبل وفاته ما تعريبهُ: «اي بنيَّ لم يبق لنا وسيلة لننجو بها من معرَّة بني عثمان ولجاجهم الَّا ان نتهدَّدهم بانضمامنا الى ملوك الفرنج فاذا رأيتهم يستعدُّون الى حصار القسطنطينيَّة اعرض على الفرنج عقد مجمع وأرسل وفداً لذلك ولكن اسعَ في تأجيل المفاوضات قدر امكانك واجتهد طاقتك في معارضة ذاك المجمع لانَّ إباء اللاتين وعناد الروم على طرفي نقيض لا يمكن الموافقة بينهما»

فيؤخذ من هذا انَّ الروم لم يجروا في عملهم بنيَّة صادقة وانَّما كانوا يريدون ترهيب الاتراك وترغيب الفرنج في مساعدتهم مجَّاناً على غير شروط

لكن نفس بسَّاريون الشريفة واستقامة نيَّته لم ترضيا بهذا الدهاء والتدليس. ومن ثمَّ لمَّا اراد يوحنَّا پاليولوغ ان يستأنف المخابرات مع الفرنج في امر الاتحاد مع الكنيسة الرومانيَّة نبذ كلَّ مواربة وعزم على السير بصدق وحزم وثبات. وكان يرى انَّ بلادهُ صارت على شفا هاوٍ وانَّها لا مناصَ لها الَّا بجمع كلمة نصارى الشرق والغرب

ومن ثمَّ اخذ يخطب ويكتب ويبيِّن لمواطنيه انَّ الخلاص بضمّ القوى مع الغربيين وانَّ احسن وسيلة لذلك الاتفاق الدينيّ وانَّ ما يستعظمهُ البعض من الاختلافات بين اللاتين والروم انَّما هو من قبيل التهاويل والاشباح المخيفة التي تبطل وتتبدَّد بالاجتماع لا سيما اذا كان الفريقان يجريان على خطة النزاهة وصدق العمل

وكان الحبر الاعظم الجالس وقتئذٍ على السدّة البطرسية اوجانيوس الرابع من اكبر رجال عصره فضلاً وارسمهم علماً اوقف نفسهُ منذ ضبط ازمّة التدبير لفكّ اغلال الكنيسة التي كان يناقضها في ذاك الوقت آباء مجمع بال (Bâle) الساعين بتغليب آرائهم الباطلة ليجعلوا البابويّة تحت حكم الشورى فاقدةً لاستقلالها الذي منحها اياهُ السيّد المسيح . فلم يشإ اوجانيوس ان يرضخ لاحكامهم فامر بالغاء المجمع لكنّ اعضاءهُ ابوا الخضوع لامرهِ واستبدّوا بمواصلة مجمعهم رغماً عن الحبر الاعظم الذي ضربهم بالحرم فاخذوا يوفدون الوفود الى الروم كي يكسبوهم الى حزبهم ويصرفوا نظرهم عن البابا الشرعي اوجانيوس الرابع

وكان الحبر الاعظم يلقى في الوقت عينهِ عثرةً في سبيله في مدينة رومية التي كان استولى عليها زعيمان فوضويّان كانا يتنازعان فيها السلطة المدنيّة فجعلا رومية كساحة قتال لا يمكن السكنى فيها فخرج البابا من عاصمتهِ متوجّهاً الى فارونسة

فتفضل بنّاريون عدلَ الروم عن مجمع بال العنيد وطلبوا من البابا ان يعيّن بلداً لعقد مجمع آخر قانونيّ يحضرهُ آباء الكنيستين . وكان بنّاريون منذ تعيينهِ لكرسيّ نيقية لا يفارق الملك فيعضدهُ بمشورتهِ ويحسن في عينهِ منافع الاتحاد لينقذ وطنهُ من الاخطار المحدقة بهِ . وتحقيق تلك الامانيّ كان بنّاريون في وقت الفراغ يدرس القضايا التي تفصل الكنيستين فيراجع تآليف آباء الكنيسة اليونانيّة ويقابلها مع تعاليم اللاتين فيتأكد انّ اللاتين محقّون لا يخالفون معتقد الكنيسة القديمة . ولا باس من كونهم في طقوسهم وآدابهم الكنسيّة لا يوافقون الروم فانّ هذه العادات عرَضيّة لا تمسّ جوهر الايمان

وعليهِ طفح قلب بنّاريون سروراً لمّا رأى انّ الملك يوحنّا رضي بدعوة البابا اوجانيوس الذي عيّن مدينة فرّارة من اعمال ايطالية لعقد المجمع فجُهّزت اربع سفن فاخرة عُقد لواؤها لاحد ذوي قربى البابا الادنين فركبها القيصر يوحنا والبطريرك يوسف القسطنطينيّ ونوّاب بطاركة الشرق والسيّد ايسيدورس مطران كياف وجاثليق جميع كنائس روسيّة مع قوم من اعيان الروم واكابرهم يبلغ عددهم سبعمائة نفس وكان الحبر الاعظم تقبّل مصاريف سفرهم منذ خروجهم من القسطنطينيّة الى حين عودتهم اليها على نفقتهِ الخاصّة

كان خروج الروم من ثغر القسطنطينيَّة في ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٤٣٧ فبلغوا البندقيَّة في ٨ شباط سنة ١٤٣٨ بعد سفر عاينوا فيه اهوال البحر وايقنوا بالهلاك. فاستقبلهم البنادقة بما لا مزيد عليه من الاجلال والاُبَّهة وكان سفرهم من البندقيَّة الى فرّارة اشبه بموكب المنتصرين. وكان احتفاء الحبر الاعظم بالوافدين افخم واجلّ. وقد فصَّل كلّ ذلك حضرة الاب المرحوم دي كوبيه في كتابه كشف المكتوم في تاريخ آخري سلاطين الروم الذي عرَّبهُ جناب خليل افندي البدويّ. وفي ٩ من شهر فيسان عُقدت اوَّل جلسةٍ عموميَّة حضرها الروم واللاتين واتَّفقوا فيها على المواضيع التي تدور عليها الابحاث. ولئلَّا يتَّسع مجال المفاوضات دون جدوى اتَّخذ الفريقان لجنات خاصَّة تتباحث في الامور ثم يعرض خلاصة ابحاثهم على آباء المجمع افرادٌ من الروم واللاتين فكان اوَّل من وقع الاختيار عليه بين الروم بسَّاريون

وقضى آباء المجمع بعد هذه الجلسة الاولى عدَّة اشهر ليعدُّوا موادّ الجدال في الاجتماعات الخصوصيَّة وينتظروا الذين تأخر حضورهم من بعض جهات الشرق فعُقدت الجلسة الثانية في ٨ تشرين الاوَّل وكانت من افخم الاجتماعات حضرها الشرقيُّون بكل رونق حللهم وبزّهم واوساطهم وكان القيصر في مقدّمتهم على عرش جليل امام بقامه فافتُتحت الجلسة بخطاب نفيس ألقاهُ باليونانيَّة بسَّاريون اعرب فيه عن قلب غيور مفعم بالحبّ لكنيسة المسيح واطرأ رغبة الجميع بقطع دابر الشقاق الذي يفصل الكنيستين ويمزّق رداء المسيح المنسوج غير المخيط وهو الذي لم يبتغ لكنيسته شيئاً اكثر من الوحدة فيكون رأسها واحداً ورعيَّتها واحدة. واقاض في الكلام فذهب فيه كلّ مذهب حتى اضرم قارب الحضور رغبةً في الرنام. ثمَّ اخذوا يخوضون في ميدان الجدال على مقتضى ما شاءهُ الشرقيُّون. فعُرضت القضايا الخمس التي لا يوافق فيها الروم الكنيسة اللاتينيَّة اعني انبثاق الروح القدس من الآب والابن ثم مسألة الفطير في التقديس ثمَّ المطهر ثمَّ حظوى القديسين بمشاهدة الله عياناً قبل الدينونة العامَّة واخيراً قضيَّة الرئاسة البطرسيَّة على الكنيسة

ثمَّ توالت الجلسات حتى بلغ عددها الاربع عشرة. فكان الآباء اليونان يعرضون قضاياهم ويؤيّدونها باقاويل معلّميهم او يسعون باثباتها من الكتب المقدَّسة لكنَّ اللاتين كانوا لا يدعون مشكلاً الَّا يحلُّونهُ ولا عقبةً الَّا يذلّلونها كما

يُرى من تفاصيل تلك الجلسات المحرّرة في اعمال المجمع الذي يُنسب اصلهُ اليوناني الى بسّاريون وهو الذي عُرّب ومن تعريبه عدّة نسخ في بلاد الشام منها ثلث نسخ في مكتبتنا الشرقية يمكن الوقوف عليها

وامتاز في هذا المجمع بين اليونان رجلان اصبحا بعد زمان قليل كزعيمي حزبين متناقضين نزيد بهما بسّاريون ومرقس الافسي فانَّ بسّاريون بصدق لهجته وتواضعه واستقامته في الجدال وكثرة مطالعته لاعمال الآباء كان اذا رأى الحقّ لا يكابره بل يجاهر بالاذعان له لئلّا يقارم الروح القدس. وكان مرقس الافسيّ على خلاف ذلك جمع حولهُ كلّ من يعادي اللاتين ويأبى الانقياد اليهم فكان كلّ يوم يسعى بعرقلة الجدال ويعود الى المشاكل التي حُلّت عُقَدها ولا يرضى بما يأتيه الآباء اللاتين من الادلّة القاطعة

فكان بسبب مرقس الافسي يطول الجدال دون الفائدة المرغوبة . وكانت نيّتهُ في ذلك وغاية حزبهِ معهُ ان يملّ الجميع من هذه المجادلات فتُهمل المسألة الدينيّة ويُعدَل عنها الى المسألة السياسيّة

غير ان بسّاريون ادرك مقصود مرقس ولذلك كان اذا رآهُ حاد عن خطّة الجدال ردّهُ اليها واذا عاد الى ما فنّدهُ اللاتين ذكّرهُ بأن لا طائل تحت التكرار . وكان اذا شعر بتداخل السياسة البشريّة في المفاوضات نبذها لئلّا ينصرف نظر الآباء الى الشؤون الزمنيّة

وفي تلك الاثناء فشا الطاعون في فرّارة وذهب بحياة بعض المجتمعين فافرغ اصحاب مرقس الافسي كنانة الجهد ليفرطوا سلك المجمع لكنّ بسّاريون رأى في ارفضاضه بطلان كلّ المساعي السابقة وشدّد على مواصلة اعماله فعرض وقتئذٍ البابا اوجانيوس نقل المجمع الى مدينة فلورنسة فرضي القيصر وانتقلوا اليها وفيها عُقدت الجلسة الخامسة عشرة في ٢ آذار سنة ١٤٣٨ وتبعتها خمس جلسات أُخر اتّضح فيها الحقّ تمامًا لا سيما بخصوص قضيّة انبثاق الروح القدس بعد ان راجعوا النظر في مخطوطات الآباء القديمة واثبتوا نصوص القديسين باسيليوس ومكسيموس لجنح كثير من الشرقيين الى الاتّحاد وظهر خُبث مرقس الافسي في عدّة تحريفات كان لا يأنف من التوسّل بها لغايته النميمة لكن بسّاريون كان بعينهِ اليقظى يرذل

تلاعبهُ ويثبت صحّة النصوص القديمة بحيث لم يبقَ وجهٌ لمكابرة الحقيقة. وصادق على اقوالهِ ايسيدورس جاثليق روسيَّة وكثيرون من ائمّة الروم فنفروا من اعمال مرقس. وزأى القيصر نفسهُ في خطّة الافسي مخجلاً في شرف الروم

فعقد وقتئذٍ البطريرك يوسف مع الاساقفة الشرقيين مؤتمراً حضرهُ الملك واعلنوا برضاهم عن احتجاج الغربيين وكتبوا صورة ايمانهم منقولة عن اقاويل الآباء الشرقيين التي وافقهم عليها الغربيُّون

ثمَّ عادوا الى عقد جلسات اخرى الّا انَّ مرقس واتباعهُ اذ رأوا انَّ القسم الاكبر من الشرقيين جعلوا يمالئون الغربيين صمّموا العزم وهم افراد قليلون على مناقضتهم فقام مرقس وكان تارةً يصرخ انَّ الغربيين بزيادتهم على الدستور النيقوي قد خالفوا الآباء القديسين كأنَّ الكنيسة لا يجوز لها ان توضح ايمانها اذا نكر احدٌ بعض معتقداتها . وتارةً يكرّر انَّ اللاتين هراطقة لاعتقادهم انبثاق الروح القدس من الابن . فناصبهُ بسّاريون بكلّ حماسة واثبت لهُ انهُ بايجابهِ الهرطقة على الغربيين يوجبها ايضاً على كثيرين من القديسين الشرقيين القائلين بقولهم . فلم يجد مرقس جواباً على معارضتهِ الّا ان يقول : « وما يدرينا ان كانت كتبهم لم تحرَّف » فافحمهُ بسّاريون بقولهِ : « ليت شعري ومن يستطيع ان يقول انَّ ميامر ومواعظ برمَّتها قد أفسدت وان شروحاً مطوّلة على الاناجيل المقدَّسة والاسفار الالهيَّة وتآليف لاهوتيَّة متعدّدة قد تلاعبت بها ايدي المحرّفين دون ان يشعر بها احد او يحتجّ عليها . . . ولاسيما انَّ هؤلاء الآباء قد شرّفوا كنيستنا الشرقيَّة كالقديس مكسيموس الشهيد المصرّح بانبثاق الروح القدس من الابن فهذا لعمري غاية في الغرابة »

فما كان بعد هذا القول السجديّ اعتراض لمعترض وكفُّوا عن عقد جلسات جديدة اذ رأوا انهُ لم يبق شيءٌ جديد يأتي بهِ الشرقيُّون لتأييد اقوالهم ولكن واصل الشرقيُّون اجتماعاتهم الخصوصيَّة مع السيّد البطريرك بحضور القيصر ليجدوا احسن وسيلة لتأييد الاتّحاد فكان لبسّاريون في تلك المفاوضات السهم الافوز يعضدهُ ايسيدورس مطران كياف فكان في كلّ جلسة يخطب الخطب البليغة ويثبت بالحجج الدامغة تعاليم الغربيين استناداً الى كتب آباء الكنيسة الشرقيَّة ويستحلف اخوتهُ بان لا يكابروا الحقّ ولا يدّعوا تلك الفرصة الوحيدة لاستئصال زوان

الشقاق بعد ما اظهر البابا والآباء الغربيُّون من اللطف والمجاملة ومراعاة آداب البحث وحسن الدفاع عن معتقداتهم ما لا يمكن الزيادة عليهِ »

فكان لكلام بسَّاريون احسن وقع في القلوب فتصادق عليهِ معظم الاباء والقيصر نفسهُ الذي قام ايضاً خطيباً فيهم قائلاً : « لا ريب انَّ الانشقاق مرتمهُ وخيم لانَّ شرَّ الخطايا وافظعها افتراق الكنائس ومن يتبع الاتحاد كان نصيبهُ اسوأ عاقبةً من نصيب يهوذا الدافع الذي خان سيِّدهُ » فهتف الاساقفة في اثر هذا الكلام: « كلّ من لا يرضى بالاتحاد في الايمان المستقيم الرأي فليكن محروماً »

فبعد هذه الاعلانات الصريحة تداول علماء الشرقيين وكان بسَّاريون في جملتهم مع الغربيين في بقيَّة الامور التي لم يتَّفقوا فيها اعني مسألة الفطير وكلام الربّ الذي بهِ يتمّ تقديس الخبز والخمر ومسألة المطهر . فوجدوا انَّ تلك الامور حصل فيها سوء تفاهم بين الفريقين فاذ اوضح كلّ فريق حقيقة معتقدهِ زال الالتباس فقرَّروا انَّهُ يكفي ان تكون مادَّة التقديس خبز القمح فطيراً كان او خميراً حسب عادة كلّ كنيسة . وكذا صورة التقديس فانَّ الشرقيين بيَّنوا انهم يعتقدون كاللاتين انَّ استحالة الاشكال تتمُّ بكلام الربّ : « هذا هو جسدي هذا هو دمي » وانَّا يلتمسون من الروح القدس بانَّ يُقرّ نعمة جسد ودم المسيح على المؤمنين . ولم يشكل عليهم امر المطهر لأنَّ الكلّ يقرُّون بوجود مكان موقَّت لمحض الخطايا العرضيَّة التي لم يفِ عنها المؤمن عند وفاتهِ او لأداء ما بقي عليه من الدَّين لعدل الله ولا بأس ان يُدعى ذاك المكان مطهراً او باسم آخر

وكانت بقيت قضيَّة رئاسة الحبر الاعظم على الكنيسة جمعاء ليس شرفاً فقط بل فعلاً ايضاً . على انَّ بسَّاريون الذي كان درس المعتقد درساً تاماً عرض على ذويهِ « ان يعترفوا للبابا ذات الحقوق التي كانت لهُ قبل الافتراق ويقرُّوا بانهُ نائب يسوع المسيح وخليفة القديس بطرس زعيم الرسل ورئيس كلّ الكنيسة الاعظم » وهكذا حُلَّت بهمَّة بسَّاريون كلّ المشاكل التي كانت تعوق تقرير صكّ الاتحاد

وفي ذات اليوم الذي تمَّت فيهِ هذهِ الموافقة بين الشرقيين والغربيين حدث امرٌ مهمّ جاء مثبتاً لها اثباتاً لا يمتزج فيه شيء من الاغراض الزمنيَّة نريد بذلك وفاة البطريرك القسطنطينيّ يوسف الذي أصيب بنوبة من داء القلب لم تترك لهُ الَّا بضع ساعات

ليستعدّ لمواجهة ربّهِ فكان اوّل ما فكّر فيهِ ان طلب قرطاساً وقلماً ليحرّر صورة ايمانهِ في تلك الساعة التي لا يرى الانسان للخداع سبيلاً فكتب وصيّتهُ على الصورة التي اوردتها مجلّة المشرق سنة ١٩٠٤ (٧ : ٣٣٤) عن نسخة قديمة التعريب وفيها يقول :

« رأيتُ ان اكتب وأضع خطّ يدي وامضائي لجمهور اولادي وارضع رأيي علانيةً وهو انهُ كلّ ما ترضى بهِ الكنيسة الرومانيّة وتعتقدهُ يعمة الله الكاثوليكيّة وهي رومية القديمة فانا ارضى واقبل واقدّم بذلك طاعة عقلي واقراري ان الحبر الاعظم السيد هو اب الآباء والرئيس الاعظم وناثب ربّنا يسوع المسيح وهو بابا رومية القديمة الضابط الايمان على كلّ المؤمنين. واعترف ايضاً بمظهر النفوس . . . (والوصيّة مؤرخة) ٥ في ٩ حزيران سنة ١٤٣٩ الاندكتيون الثاني »

فكان لهذه الوصاة تأثير كبير في جميع آباء المجمع كما انّ حفلة جنازة هذا البطريرك قلّما شوهد مثلها حفاوةً واجلالاً حضرها البابا وجميع الكرادلة

ولم يمرّ على هذا الواقع الخطير شهر بتمامهِ حتى اتّفق الشرقيّون على صورة صكّ الاتحاد النهائي وكان الفضل في ذلك ايضاً لبساريون الذي انشأها بدقّة عجيبة لم تُبقِ ريباً ما لاحد ثمّ قدّموها للبابا موقعة باسمائهم باليونانيّة فتُرجمت الى اللاتينيّة . وعدد المذيّلين لهـا بخطوطهم من الشرقيين ثلاثون اي كلّ الذين حضروا المجمع بصفة رسميّة الّا مرقس الافسسي الذي كان رُشق باللوم لا خيانة لولا انهُ استرحم القيصر وطلب منهُ الّا تُفضح شيبتهُ امام اللاتين اذا رجع عن رأيهِ . كأنّ اقرار المرء بغلطهِ يشينهُ ولا يشرّفهُ . فأجابهُ القيصر ريثما يعود الى القسطنطينيّة

واعلن الحبر الاعظم بذلك الصكّ في براءة بابويّة في اليوم السادس من تموز بجلسة عظيمة اجتمع فيها الاكليروسان اليوناني والغربي امتزجت فيهـا رُتب الكنيستين وألحان موسيقاهما على ابدع صورة . وفي ختام الذبيحة جلس البابا على منصّتهِ والقيصر على عرشهِ فقرئت البراءة في اليونانيّة ثم في اللاتينيّة وكان قارئها اليوناني بساريون الذي استحقّ ان يكون لهُ التقدّم اذ كان كما بيّنّا رسول الاتحاد مع انهُ السابع في ترتيب الموقعين للبراءة بختمهم فكان بعد الله رائد الوحدة وتصويرها ومنفذها فعلاً . فتمّ ذاك المجمع العامّ الذي لا مناص للشرقيين أن يعدّوهُ مجمعاً مسكونيّاً اعلن فيهِ الشرق والغرب بمسيح واحد وايمان واحد ورئيس واحد فان نبذوهُ لا بُدّ لهم من

القول بان كنيسة المسيح المصونة من الضلال ضلّت يوماً وقويت عليها ابواب الجحيم ما لم يقولوا ان مرقس الافسسي وحده كان يمثل الكنيسة جمعاء على خلاف تعليم الايمان. فهذا سيف ذو حدّين لا مناص منهُ

وبعد نهاية المجمع بثلثة اشهر ابحر الروم (في ٢٦ آب ١٤٣٩) عائدين الى القسطنطينيّة مشيّعين بكل اكرام وكان بساريون في جملتهم وهو مستعدّ ان يناضل عن الايمان بازاء كلّ مواطنيه شفاهاً وكتابةً (١. فاراد الحبر الاعظم ان يجازيهُ على اتعابهِ وفي ١٨ كانون الاوّل من تلك السنة رقّاهُ الى رتبة كاردلة الكنيسة الرومانيّة فعل ذلك من تلقاء ذاتهِ في غيبة بساريون اذ كان يعرف نفورهُ عن الامتيازات الشرفيّة وقلّما يقال انّ بساريون بتنفيذهِ لاعمال المجمع كان يطلب غايةً بشريّة. فكان اوّل كردينال شرقيّ لبس الارجوان لكنّهُ شرّف بزّتهُ هذه اكثر من ان يتشرّف بها. فطرب كلّ محبي الاتحاد وشكروا البابا على عملهِ هذا. ورقّى البابا معهُ الى منصب الكرادلة ايسيدورس مطروبوليت كياف وجاثليق روسيّة وكان هو ايضاً من اعظم المدافعين عن اتحاد الكنيستين

بقي بساريون في القسطنطينيّة سنةً كاملة وحاول ان يقنع مواطنيه بالانضمام الى الوحدة لكنّهُ وجد فيهم قوماً غلبت على قلوبهم الاوهام وختمت عليها الاهواء الباطلة فكان مرقس الافسسي يصرخ بان الروم خانوا الايمان رغبةً في دنياهم وانّ الكنيسة اليونانيّة استعبدت لرومية العتيقة. فهاج القوم وماجوا واضطرّوا بعض الاساقفة الذين أمضوا صكّ الاتحاد ان يرجعوا عن رأيهم فبلغ الجنون ببعضهم الى ان صرخوا: «عمامة العرب ولا تاج احبار رومية». فكان بعد قليل ما كان وسقطت القسطنطينيّة في حوزة محمّد الفاتح رغماً عمّا بذل في نجاتها قسطنطين خلف يوحنّا الثاني والبندقيّون انصار الروم وغيرهم من الفرنج الذين اتوا لمساعدتهم ملبين دعوة البابا

امّا بساريون فلمّا رأى هيجان قومهِ ضدّ الاتحاد وتبيّن ان مساعيهُ ذهبت ادراج الرياح عاد الى ايطالية حيث كان الحبر الاعظم استدعاهُ ليخدم الكنيسة في الرتبة

(١ هذا ما صرّح به بساريون في احدى رسائلهِ على خلاف ما روى المؤرخ فرنتزس بقولهِ انّ بساريون بقي في ايطالية

الكردينالية . لكنهُ لم ينسَ وطنهُ وفي مدَّة نيف وثلاثين سنةً قضاها في ايطالية الى وفاتهِ وقام في غضونها بمهامَّ جليلة كان فكرهُ مشجعاً الى بلاد الروم ليرسل الى مساعدتهم كلَّ المدد والذخائر الحربيَّة . ولما فُتحت القسطنطينيَّة جُرح قلبهُ بجرح أليم فافاضَ الدموع السخينة عليها وكتب في ذلك خطاباً هو مدوَّن بين اعمالهِ يستترف عبرات قارئهِ

واذ فُقد الوطن العزيز صرف همَّهُ الى النفوس فكان لا يزال يناشد مواطنيهِ الله ليعودوا الى حجر الكنيسة الرومانيَّة التي فيها وحدها يلقون ضماداً لجراحهم . ولدينا رسالة كتبها في ذلك هي معرَّبة في بعض مخطوطات مكتبتنا الشرقيَّة (راجع المشرق سنة ١٩٠٤ ج ٧ : ٣٣٥)

وهذه الرسالة قد كتبها بسَّاريون نحو السنة ١٤٦٠ كمنشور بطريركي الى الروم وكان البابا بيوس الثاني اقامهُ خلفاً على كرسيّ القسطنطينيَّة للبطريرك القسطنطيني غريغوريوس المعروف بپروتوسنكلوس المتوفى . واصل هذه الرسالة اليوناني في اعمال آباء اليونان في مين (Migne, P. G., t.161 col. 447-480) وقد عرَّبها جناب خليل افندي البدوي في كتاب آخر سلاطين الروم (ص ١٨٠ — ١٣٩) يلوح من مطاويها روح تفاني بساريون في خدمة ابناء وطنهِ لا يشتهي لهم الَّا السلام بعد بلاياهم المستحدثة ولكن لا سلام الَّا للذي يذعن للحقّ ويطيع للسلطة القائمة من الله فعلى الروم ان يتلافوا المعائب السابقة وانقراض دولتهم معترفين بالقضايا التي قرَّرتها الكنيستان اليونانيَّة واللاتينيَّة . وقد بسط ذلك بسطاً واسعاً وايَّدهُ بالبراهين العقليَّة والنقليَّة

وخلاصة القول انَّ بساريون يُعَدّ من اعظم رجال الشرق فضلاً واغزرهم علماً ونشدهم محبَّة لبني ملَّتهِ ولم يزل الى آخر انفاسهِ يبذل قصارى المجهود في استنهاض همَّة ملوك الغرب واستحثاث غيرتهم على اسعاف الروم حتى بعد فتح القسطنطينيَّة كما تشهد عليهِ كتاباتهُ وان حبط في ذلك مسعاهُ فما كان الَّا لسوء احوال ذلك الزمان . فالواجب على الشرقيين ان ينظموهُ في سلك اعظم مشاهيرهم فينصبوا لهُ تمثالاً في قاويهم بترب اقسار الكنيسة الشرقيَّة الثلثة يوحنَّا الذهبيّ الفم وباسيليوس وغريغوريوس اللاهوتيّ كما انَّهُ شرَّف الاقطار الغربيَّة فاستحقّ شكرها العميم

بشروعاته المتعدّدة التي ضربنا عنها صفحاً في هذه المقالة وكفاهُ فخرًا انهُ زان رتبة الكرادلة الى سنة وفاته ١٤٧٢ بل كاد مرتين يفوز باكثريّة الاصوات ليجلس على سدّة الخلافة البطرسيّة. وانما لهُ فخرٌ اعظم من كلّ ذلك لا تمحقه الايام وهو كونهُ رسول الاتحاد بين الكنيستين

البرهان الصريح
في اثبات ألوهيّة المسيح

ردًّا على مجلّة المنار للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الفصل الثاني

الوهيّة المسيح في عيشته الخفيّة

رأيتَ انَّ مولد السيّد المسيح مع ما رافقهُ من الذلّ والاتضاع الاختياري دلَّ دلالةً لامعةً على جلال لاهوته. وليست حياتهُ الخامدة بعد ميلاده الى ساعة خروجه للدعوة بين اليهود دون غرَّة حياته ببيانًا على تلك الالوهيَّة اذا انتقدها الانسان بعين بصيرته ونزَّه قلبهُ عن الاهواء الباطلة والاعتبارات الزمنيَّة الواهية

قد اعتاد البشر لضعف ادراكهم ان يقيسوا امور الله على قياس شؤونهم المحسوسة وشتَّان بين اعماله تعالى واعمال المخلوقات وانلك ترى حياة المسيح على خلاف ما يتخيَّلهُ الانسان في كبار الرجال من الجاه والغنى والشرف العالمي والقوَّة الماديَّة فانَّ هذه الاشياء انما تشرّف بشرًا مثلنا وحيات ان تجدي شرفًا الّا متأنسًا ظهر بين الناس لينهج لهم طريق الحياة بممارسة الفضائل السامية. فلو كان السيّد المسيح نزل الى ارضنا بأبهة الملك وجلال السلاطين وبطش الفاتحين فايُّ فضل كان لهُ في فعله وهو ربّ الارباب تذعن لامره السماوات والارضون فانهُ لو فعل ذلك لكان زاد الانسان طعماً في حطام الدنيا ومناهُ في خيراتها الظاهرة وبفعله كان اغراهُ بدلًا من ان يشفي داءهُ. ولذلك قد آثر في مدَّة حياته الخفيَّة الخمول والهوان منقطعاً الى الفضائل التي وحدها تعظّم الانسان في اعين الله وتحرزهُ من